الفصل الثانى

مَا تقولُ لربّكَ غدًا؟

لا شيء يميّز الطبائع المتفرقة السوِيَّة، مثل نَأْيِها عن الغرور..

ولو كان ثمَّة رجل، لابد للغرور أن يتسوَّر حصونه المنيعة لفرط مزاياه وروعة أمجاده وانتصاراته، لكان «عمر»..

فهو يدخل الإسلام في حفاوة بالغة من الرسول وصحبه.

وهو يرى كيف صار الإسلام دينًا جَهْوَرِيَّ الصوت، صادح الكلمة، في اليوم نفسه الذى اعتنقه فيه.

ويبصر المسلمين الذين كانوا من قبل يَستخفُون من طغاة مكة، يواجهون اليوم الأذى في شُموخ، ويرجُّون مكة بتكبيرهم بعد أن صار «لعمر» بينهم مكان.

ويرى رسول الله ينعته بالفاروق، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل، وبين الملاينة والمُواجهة.

ويرى نفسه يقترح على رسول الله بعض آرائه، فلا يوافقه الرسول فحسب، بل يتنزل به الوحي، ويصير قُرآنًا يُتلى.

وفيمـا بعد. يُضحى خليفة لرسـول الله بعد أبى بكـر، وأميرًا للمؤمنين، تنفتح فى أيامه «بوابات» العالم لدين الله، وتزحم راياته جوَّ السماء فى كل أفق.

كل هذا، ألا يجد الغرور من خلاله ثغرة ينفذ منها، إن لم يجد أكثر من الثغرات؟؟!

ومع ذلك، فلا نكاد نعرف نفسًـا امتنعت على الغرور وتكسرت أمـام حصونها المنيعة كلُّ محاولاته، مثل نفس هذا الرجل الفرد، «عمر»!.

فمن أين له هذا..؟

لا ريب أن لطبيعته واستعداده الفطرى الأثر الكبير الناجع.

ولا ريب أيضًا فى أن الطريقة التى اتصلت بها هذه الطبيعة بالله قـد أفاءت عليها مَددًا لا يفنـى ومقدرة لا تتلجلج وعزوفًا كاملا عن كل ما فى الحياة الدنيا من غرور وزهو.

إن «عمر» نفسـه يردُّ إلى الله، وإلى الدين الذى انتهج نهجه كل ما معه من فضائل، وهُدىً، واقتدار..

ولطالما كان يقول لإخوانه: «لقد كنا، ولسـنا شيئًا مذكورًا حتى أعزنا الله بالإسلام، فإذا ذهبنا نلتمس العز فى غيره ذللنا»..

فلننظر كيف كانت علاقة «عمر» بربه.

لننظر كيف التقت طبيعة قوية. بنُسُـك قـوى، لِيُنجبا الرجل القوى الأمين.

ولسوف نجد كل تصرفات «عمر» تسير وفق إجلالٍ لله فريد.

أجل، إن «عمر» لَيخشى ربه خشية، ويوقره توقيرًا، حتى إنه ليكاد يذوب ويتحلَّل كلما هَوَّمَتْ حوله من بعيد ومضة من ومضات ربه ذى الجلال والإكرام.

وكان لا يَفْتأ يردد لنفسه هذا اللحن المهيب: «ما تقول لربك غدًا»؟!

نعم.. «ما تقول لربك غدًا»..؟

عبارة قد نتلوها نحن فى دعَةٍ ويُسر، أما هو فكانت تزلزله زلزالا شديدًا..!!

يقول الأحنف بن قيس:

- «كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال: يا أمير المؤمنين انطلق معى فأعِدْنى على فلان فقد ظلمنى.. فرفع عمر درّته وخفق بها رأس الرجل وقال له: تَدعُون أمير المؤمنين وهو معرَّض لكم، مقبل عليكم، حتى إذا شغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه: أعدِنى.. أعدِنى..

«فانصرف الرجل غضبان أسِفًا، فقال عمر: علَىَّ بالرجل.

«فلما عاد، ناوله مِخْفقَته وقال له: خذ واقتصَّ لنفسك منى.

«قال الرجل: لا والله، ولكنى أدَعُها لله.. وانصرف، وعدت مع عمر إلى بيته فصلى ركعتين ثم جلس يحاسب نفسه ويقول:

– ابــن الخطاب؟. كنت وضيعًا فرفعــك الله، وكنت ضالا فهداك الله، وكنــت ذليلا فأعزك الله.. ثم حملك على رقاب الناس، فجاءك رجل يَستعديك فضربته، فماذا تقول لربك غدًا إذا أتيته»؟!!

* * *

ما تقول لربك غدًا..؟

فى هذه العبــارة، يتمثل دين عمر ومنهاجه، وتســتمد حياتُه معاييرها وموازينها.

وفيها يتمثــل جواز مروره إلى الدنيا، وجواز مرور الدنيا بكل طيباتها إليه.

فأمامَ كل لقمة شــهية.. وأمام كل شــربة باردة.. وأمام كل ثوب جديد تَسَّــاقط دموعه.. تلك الدموع التى تركت تحت مقلتيه خطين أســودين من فرْط بكائه، ويصلصل داخل نفسه هذا النذير «ما تقول لربِّك غدًا»..؟

هذا هو جبَّار الجاهلية، وعملاق الإسلام.

هذا هــو أمير المؤمنين الذى تفتحت لأعلامــه الخافقات أقطار الدنيا، واستقبل الناس جيوشه كأنها البُشْرَيات.

هو ذا، يؤمُّ الناس فى الصلاة فيســمع بكاءه ونشــيجه أصحابُ الصف الأخير..!

وها هو ذا يعدو، ويُهــرول وراء بعير أفلت من معطنه، ويلقاه «علىّ بن أبى طالب» فيسأله: إلى أين يا أمير المؤمنين؟

فيجيبه: بعيرٌ ندَّ من إبل الصدقة أطلبه.

يقول له: «على»: لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك..!

فيجيبه «عمر» بكلمات مُتهدِّجة:

- «والذى بعث محمدًا بالحق، لو أن عَنْزًا ذهبت بشاطئ الفرات، لأُخِذ بها عمر يوم القيامة»..!

أكان «عمر» يخاف الله خوف العبد الذى يُرهبه قرع العصا ولَذع السياط..؟

لا. وإنما كان يخشاه خشية الحر الذى يرجو لربه وقارًا، ويضرع إليه إجلالا وإكبارًا، ويخجل أن يلقاه بتقصير - أى تقصير..!!

وهذا هو نشيده دومًا:

- «كنتَ وضيعًا فرفعك الله، و كنت ضالا فهداك الله، وكنت ذليلا فأعزك الله، فما تقول لربك غدًا إذا أتيته»..؟!

* * *

ولكن، لم كل هذه الخشية الضاغطة، والحياء الداهم؟

إن «عمر» قد تأدّب على يدى رسول الله أحسن تأدّب، وإنه لَيُتابع الرسـول فى غير جَنَفٍ أو مَيْل، وإنه لَذُو نسُك عظيم، وإنه لَنسيجُ وحدِه فى ورعه، وإخباته، وزهده، وتقواه.

أفلا يُفيء هذا على نفسه القلقة كثيرًا من الطمأنينة والراحة؟

بلى يُفيء.. لو كان إنسـانًا آخـر غير «عمر» أما هو فلا يرى فى هذا النسُك كله سوى جُهد المُقِلِّ العاجز، ولا يرى فى توفيق الله له سوى نعمة تستوجب شكرًا يليق بها..

ذات يوم، يقول لجليسه «أبى موسى الأشعرى»:

– «يا أبا موسـى، هل يَسرُّك أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا معه، وشهادتنا، وعملنا كله يُردّ علينا، لِقاءَ أن ننجو كَفافًا، لا لنا ولا علينا»؟

فيجيبـه أبو موسـى «لا والله يا عمر، فلقد جاهدنـا، وصلَّينا، وصُمْنـا، وعملنا خيرًا كثيرًا، وأسـلم على أيدينـا خلْق كثير وإنا لنرجو ثواب ذلك».

فيجيبه «عمر» ودموعه تتَحدَّر على وجنتيه كحبَّاتِ لُؤلؤ منثور:

– «أمَّـا أنا، فو الذى نفس عمر بيده لَودِدْتُ أنّ ذلك يُردّ لى، ثم أنجو كفافًا، رأسًا برأس»!!

انظروا إلى أى مَدىً يهاب الله ويستحى من جلاله!!

إن رسول الله بشَّره بالجنة.

وإنه لأقوى من كل شـهوة وزلّـة، حتى لكأنه معصوم من الخطأ عصمة كاملة!!

ومع هذا يقف دائمًا من الله موقف الخشية والحذر والحياء...

ولم لا يكـون كذلك، وهو يرى رسـول الله نفسـه، يقضى ليلَهُ كلـه متهجدًا متعبدًا، ونهارَه كله صائمًـا ومجاهدًا، فإذا قيل له:

يا رسول الله، لم تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيجيب ﷺ قائلا: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»؟

إنه توقيـر الله أكثر ما يكون التوقير، وشـكرانه أكثر ما يكون الشكران..

وهذه هى المدرسة التى تربى فيها «عمر» وتخرج.

مدرسـة لو لـم يخف أهلها الله، ما فكروا فـى عصيانه، ولو لم يكن للإثم عقوبة، ما فكروا فى أن يأثموا، ولو قال لهم الله: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، ما خطر ببالهم قط أن يعملوا إلا ما يَرضى ربُّهم ويُحب..

ذلـك أن علاقتهم بالله لم تكـن بواعثها الفزع. بل كانت حب الله وتوقيره، والحياء منه.

وإن إنساننا الباهر العظيم «عمر» ليمثل قمة هذا الفهم السديد.

إنه على يقين بأن أحدًا لا يستطيع أن يشكر الله حق شكره مهما تكن حياته فاضلة عادلة مستقيمة.

وإنه ليعلم أن كل شـكر لله إنما هو نعمة جديدة، تستأهل شكرًا جديدًا..

وهـو يعلم أن ما أفاء الله عليه من نعمة الإيمان والهدى والإمارة إنما هى من محض فضله سـبحانه وتعالى، وأن الله كان قادرًا على أن يختـصَّ بهذا سـواه، أمَا وقد آثره هو وقـال له: إليك منى هذه العطايا يـا «عمر».. فإن هذا لَيجعله يذوب، ويذوب.. وينكمش ثم

ينكمش... ويقول وقد فجَّر حياءَه هذا الشعور: «يا ليت أم عمر، لم تلد عمر»!!

أوْ يردد: «ما تقول لربك غدًا»؟!

إنه مصمم على أن يتفوق على ذاته، ويجاوز كل حدود قُدْراته حتى يحقق أكبر حظ ممكن من العرفان والشكر لبارئه وخالقه وربه.

«فعمر» الذى يقف خلف رسول الله - واحدًا - من أصحابه..

و«عمر» الذى يصير فيما بعد خليفة لرسول الله وأمينه على أصحابه..

«عمر» هنا وهناك، هو هو، ذلك الإنسان الخاشع الضارع الأوَّاب الذى لا يرجو فى دنياه وأخراه سوى أن ينجو كفافًا لا وزر ولا أجر!

إنه لا يطمع فى أكثر من ألا يقف بين يدى ربه خَزيان بسبب خطأ ارتكبه، أو مظلمة قصر فى دَرْئِها، أو نعمة لم يبذل الجهد فى شكرها!!

لا شىء يُؤرقه فى نومه، ويقلقه فى صحوه مثل الخشية من أن يسأله ربه غدًا فى عتاب «لماذا فعلت هذه يا عمر»؟؟

و«هذه» التى هى رمز لأى فَعلة مجهولة، تحمله على أن يقضى عمره كله جَوَّابًا داخل نفسه وخارجها باحثًا عن «هذه»... ومحاذرا أن يقترف هفوة وهو لا يدرى!!

من أجل هذا يترك الطيبات والمباهج التى أحلها الله خشية أن تتنكَّر فيها «هذه» التى يخشى السؤال عنها من الله!!

لنقرأ بعض فقرات كتابه إلى عامله على البصرة «عتبة ابن غزوان»:

«.. وقد صحبتَ رسول الله، فعززتَ به بعد الذلة، وقويت به بعد الضعف، حتى صرت أميرًا مُسلَّطًا، ومَلكا مطاعًا؛ تقول فيسمع منك، وتأمر فيطاع أمرك. فيالَها نعمة، إن لم ترفعك فوق قدرك، وتُبْطِرْكَ على من دونك»...

«تحوَّط من النعمة تحوُّطك من المعصية، فَلهِيَ أخوفهما عندى عليك، أن تستدرجك وتخدعك، فتسقط سقطة تصير بها إلى جهنم، أعيذك بالله وأعيذ نفسى من ذلك»!!

ويحدثنا جابر بن عبد الله فيقول:

– «رأى عمر بن الخطاب لحمًا معلقًا فى يدى، فسألنى: ما هذا يا جابر؟ قلت: هو لحم اشتهيتُه فاشتريتُه، فقال: أوَ كُلَّما اشتهيتَ اشتريت، أما تخاف أن يُقال لك يوم القيامة «أذْهبتم طيِّباتِكم فى حَياتكم الدّنيا»؟!

* * *

ترى ماذا يكون موقفه من السيئات، هذا الذى يخاف على دينه من الطيبات؟!

ولكن ما شـأن السـيئات بعمر، وهى التى تفرّ منه مذعورة إذا أبصرت نوره على بعد فراسخ؟!!

لقد حرم «عمر» نفسـه من طيبات كثيرة، ومن مَناعِمَ لم يحرمها الله عليه؛ لأنه كان يرى نفسـه عاجزًا عن شكر القليل، فلم يرد أن يتورط فى عجز أكثر أمام النعم الكثيرة.. ولأنه كان يحمل فى أمانة كاملة مسئولية القدوة!!

ولو شـاء أن يظفـر بالمناعم المباحـة على كثرتهـا لظفر بها جميعًا، ولكنَّ بُطولة روحه وعظمة نفسه، واستقامة نهجه حملته دائمًا على أن يلتزم الكفاف ويختار الشَّظَف.

زاره يومًـا «حفـص بن أبى العـاص»، وكان «عمر» جالسًـا إلى طعامـه، فدعا إليـه حفصًا، ولكن حفصًـا رأى القديد اليابس الذى يأكل منه «عمر»، فلم يشـأ أن يكبد نفسـه عنـاء ازدِرَاده، ولا أن يُجشِم معدته مشقة هضمه؛ فاعتذر شاكرًا.

وأدرك أمير المؤمنين سـرَّ عزوفه عن طعامه، فرفع بصره نحوه وسأله:

– ما يمنعك عن طعامنا؟

ولم تنقـص الصراحة حفصًا فقال: إنه طعام جَشِـب غليظ وإنى راجع إلى بيتى فأصيب طعامًا ليِّنًا قد صنع لى...

فقال «عمر»:

– «أترانـى عاجـزًا عن أن آمر بصغـار المِعْـزَى، فيلقى عنها شـعرها، وآمر برِقاق البـر، فيخبز خبزًا رقاقًـا، وآمر بصاع من

زبيب فيلقى فى سـمنٍ. حتى إذا صار مثـل عين الحجَلِ صُبَّ عليه الماء، فيصبح كأنه دم غزال فآكل هذا وأشرب هذا؟؟».

فقال له حفص وهو يضحك: إنك بِطَيِّبِ الطعام لَخبير!!

واستأنف «عمر» حديثه فقال:

– «والذى نفسى بيده، لولا أن تَنقُص حسناتى لشاركتكُم فى لين عيشكم – ولو شـئتُ لكنتُ أطيبكم طعامًا، وأرفهكم عيشًا، ولَنحن أعلـم بطيب الطعام من كثيـر من آكِليه، ولكننا ندعُـه ليوم تَذهل فيـه كل مرضعة عما أرضعت وتضـع كل ذات حَمل حَملها.. وإنى لأستبقى طيباتى؛ لأنى سـمعت الله تعالى يقول عن أقوام، أذهبتُم طِّيباتكم فى حياتكم الدُّنيا واستَمْتعتم بها»!!!

هكـذا عزلـه حياؤه من الله عن كل ترف، بـل عن كل راحة فى الدنيـا، وأبى أن يصيب وأهلُه من الطعام إلا تقَوُّتًا، ومن العيش إلا كَفافًا!!!

* * *

فـإذا جئنا موقفه من السـلطان، حيث يتنـازل الناس عن أكثر أعمارهم لقاء أيام يقضونها سادة حاكمين، فماذا نجد؟!

أما هذا السـلطان، على ضخامة ما أحرز منه «عمر»، فما شـقى بشىء مثلما شقى بأن رأى نفسه خليفة، وأميرًا، وحاكما!!

لقـد كانت أغلـى أمانيه أن يظل «عمر بن الخطـاب»، لا غير.. فلا هو خليفة، ولا هو أمير.

ولقـد اقتربَتْ منه الخلافة إثر وفاة رسـول الله؛ إذ بسـط إليه «أبو بكر» يمينه فى اجتماع السـقيفة قائلا: هـاتِ يدك يا «عمر» نبايعْ لك.. ولكن «عمر» خلص منها ناجيًا، إذ قال:

- «بل إياك نبايع فأنت أفضل منى».

قال أبو بكر: «أنت أقوى منى يا عمر».

قال «عمر»: «إن قوتى لك مع فضلك». وسـارع فمد يمينه وبايع أبا بكر، وبايعه الناس على إثره.

وحين كان أبو بكـر يودع الدنيا، ويعهد بالخلافة «لعمر». كان «عمر» يتقبل مكرهًا وكارهًا إمارة المؤمنين، ولولا أن يكون باعتذاره عنها فـى هذا الظرف الحرج الدقيق هاربًا من واجب سيسـأله الله عنه غدًا، لرفض السلطان وهرب من الإمارة.

«أيها الناس... إنى قد وليت عليكم، ولولا رجاء أن أكون خيركم لكـم، وأقواكم عليكم، وأشـدكم اضطلاعًا بأموركم مـا توليت ذلك منكم، ولكفَى عمر انتظار الحساب»!

انظروا... ولكَفى «عمر» انتظار الحساب!!

هذا رجل مشـغول - لا غير - بالكلمة التى سيقولها له الله غدًا وبالكلمة التى سيقولها هو لله.

والحظوظ الوافية عنده ليست فى منصب أو جاه، إنما هى فى الظفر برضاء الله سبحانه.

وفَد عليه يومًا جماعة من المسلمين النازحين. فسألهم عما صادفهم من أخبار الناس فى البلاد التى مروا بها.

فقالوا: أما بلد «كذا» فإنهم يرهبون أمير المؤمنين ويخافون بأسه.. وأما بلد «كذا» فإنهم جمعوا أموالا كثيرة تنوء بها السفن وهم فى الطريق بها إليك.. وأما بلد «كذا» فإن بها قومًا صالحين يدعون الله لك ويقولون: «اللهم اغفر لعمر وارفع درجته»..

فقال «عمر»، مُعقّبًا على حديثهم هذا:

- «أما من خافنى، فلو أريد بعمر الخير ما خِيفَ منه.. وأما الأموال التى تنوء بها السفن فلبيت مال المسلمين.. ليس لعمر ولا لآل عمر فيها شىء.. وأما الدعاء الذى سمعتم بِظَهْرِ الغيب، فذلك ما أرجوه»!!

أجل، هذا خير ما يرجو «عمر».. مغفرة ربه ورضوانه. أما السلطان، وما حول السلطان من زينة وزخرف ونفوذ؛ فتلك محنة «عمر»، وإنه ليسأل الله أن يجتازها فى خير وعافية!

حين دُعى للقاء ربه، واقتربت اللحظات التى سيودع فيها دنيا الناس، وكانت مشغلته الكبرى آنئذ اختيار الرجل الذى يسلمه الأمانة والزمام، اقترب منه «المغيرة بن شعبة» قائلا: أنا أدلك عليه يا أمير المؤمنين، إنه «عبد الله بن عمر»..

هنالك انتفض «عمر» وقال: «لا إرَبَ لنا فى أموركم، إنى ما حَمِدْتُهـا - يعنى الخلافة - فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى. إن كانت خيرًا فقد أصبنا منه، وإن كانت شرًّا، فَبِحَسْب آل عمر أن يُحاسَب منهم رجل واحد ويُسأل عن أمر أمة محمد... ألاَ إنى قد جهدت نفسى وحرمت أهلى.. وإن نجوت كفافًا لا وِزْر ولا أجر إنى لسعيد»!

بالله ما أتقاه، وما أنقاه، وما أبَرّه، وأطهره!!

إنه مهموم بما سيقوله لربه غدًا.

إنه يرفض كل نعيم يخشى أن يلجلج لسانه غدًا بين يدى الله.

ويُجفل عن السلطان على فرط عدله وورعه وأمانته، مخافة أن تتعثر الكلمات على لسانه غدًا حين يلقى الله!

إن الكلمة التى سيجيب بها غدًا حين يسأله الكبير المتعال، هى «البوصلة» التى تتحرك معها وعلى هداها كل ذرات كيانه وروحه.

وهو فى شدته حين يشتد، وفى لينه حين يلين، إنما يحركه حرصه الشديد على أن يلقى الله صادق الحجة.

يقول «لعبد الرحمن بن عوف»:

- «يا عبد الرحمن، لقد لِنتُ للناس حتى خشيت الله فى اللين، ثم اشتددت حتى خشيت الله فى الشدة، وَأيْمُ اللهِ لأنا أشد منهم فَرقًا وخوفًا، فأين المخرج؟؟».

يقول هذا، وينتحب باكيًا.

فيقول عبد الرحمن بن عوف، وهو يتملىَّ هذا المشهد الفريد:

- «أُفٍّ لهم مِن بَعدك»!

* * *

تُرى كيف قضى الرجل العظيم تلك السنوات العشر، والأشهر الستة، والأيام الأربعة التى قضاها خليفة للمسلمين وأميرًا للمؤمنين؟؟

ترى كيف قضاها، وأمضاها، وعاناها تحت ضغط هذا الإحساس الراجف، والقلب الواجف من خشية الله العلى الأعلى؟

وهل سمع الناس فى طول دنياهم وعَرضها، بعاهلٍ استحالت كل أبّهة السلطان وبذَخه أمام ناظريه إلى جمر ملتهب يتوقاه أكثر ما يكون التوقِّى، ويحاول الفرار منه لو يجد للفرار سبيلا؟

عاهل ذَلَّل كل سلطانه لخشية الله، ووفر للناس من الطمأنينة والأمن قدْرَ ما خاف هو الله؟

حاكم لم تنل من سكينة نفسه مهامُّ الأمور وأخطارها، ولا عَقد ألوية الجيوش الفاتحة وأخبارها، ومع هذا فقد كان يزلزله زلزالا شديدًا آهة مظلوم، أو نَفثة مكروب، أو همهمة حق ضائع يقول له صاحبه «اتق الله يا عمر»!!

هل سمع الناس بمثله؟!.. ومتى؟..

ذات يــوم وهو جالس مع أصحابه اقتحم المجلس رجل مكروب تَغشــاه وعَثاء السفر، وإذ يقترب من الناس ويراهم يقولون لأحدهم يا أمير المؤمنين، يتجه صوب هذا الأمير، ويقول له فى مرارة:

– «أأنت عمر؟؟ ويل لك من الله يا عمر!» ثم يمضى لســبيله غير وَانٍ ولا مكترث..

ويلحق بعض الحاضرين بالرجل فى غيظ منه وحَنق عليه، ولكن «عمــر» يناديهم ويأمرهم أن يعودوا لمجلســهم، ويهرول هو وراء الرجل وفؤاده يرتجف.

ألم يقل له الرجل: ويل لك من الله يا «عمر»؟؟ إنها الطَّامَّة إذن، وإنه الهول الذى لا يطيق «عمر» عليه صبرًا!

ويدرك الرجلَ ثم يعود به ويســأله: «ويلِي من الله لماذا، يا أخا العرب»؟؟

فيجيبه الرجل: لأنَّ عمالك وولاتك لا يعدلون، بل يظلمون.

ويسأل «عمر»: أىّ عمالى تعنى؟

يقول الرجل: عامل لك فى مصر اسمه «عياض بن غنم».

ولا يكاد «عمر» يسمع تفاصيل الشكوى حتى يختار من أصحابه رجلين ويقول لهما: اركبا إلى مصر، وائتيانى بعياض بن غنم!!

* * *

هذا الرجل «عمر»..

هذا الشامخ العارم الذى يتفجر قوة وجُرأة وبأسًا..

إذا أردت أن تبصره يرتجف.. كعصفور احتواه إعصار، فليس عليك إلا أن تقول له: ألا تتقى الله يا «عمر»؟؟

هنالك تشهد إنسانًا قامت قيامته، ويبدو كما لو كان واقفًا أمام الله.. الميزان عن يمينه، والصراط إلى يساره، وكتابه منشور أمام عينيه، والأفق كله يدوى فى سمعه:

﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الإسراء: الآية ١٤]!!

وعلى الرغم من معاناته المضنية لهذه المواقف، فإنه كان يقَرُّ بها عينًا ويطيب نفسًا، لأنها تذكّره بجلال الله وبمقامه، ولأنها تمنحه اليقين بأنه لم يجاوز قدره أبدًا كعبد لله، وخادم للناس!!

لطالما كان يدعو «أبا موسى الأشعرى» ليتلو عليه بصوته العذب المؤثر آيات من القرآن العظيم ويقول له: «ذكِّرنا ربنا، يا أبا موسى» فيقرأ أبو موسى، ويبكى عمر..

وكثيرًا ما كان يلقى صبيًّا من الصبيان فى طرقات المدينة، فيأخذ بيده ويقول له وعيناه تفيضان من الدمع: «ادع لى يا بنى، فإنك لم تُذنب بعد»!!

وساعةَ كان يستقبل الموت، يقول لابنه عبد الله:

- «يا عبد الله، خذ رأسى عن الوسادة وضعه فوق التراب، لعل الله ينظر إلىَّ فيرحمنى»!!

إن الميزان قد استقام فى يد «عمر» تمامًا حين أسلم وجهه لله وهو محسن.

وإن طبيعته الهادرة الجياشة، وقُدراته الفائقة الغلاَّبة، قد نهضت ثابتة الخطى فوق صراط العدل، والفضيلة، والواجب، حين وَّثقتْ بالله عُراها. وأسلَستْ وراء «محمد» خطاها..

وليس يُحاذر «عمر» على نفسه وعلى مصيره خطرا مثلما يحاذر أى انعزال عن الله، وأى انحراف عن طريق رسوله.

كان قبل إسلامه يتحرى الصواب ليسير وَفقه سيرة جديرة باستعداده وعظمة شمائله، وقوة روحه.

أما اليوم، فقد عرف مَحض الحق ومحض الصواب حين جاءهم به من عند الله رسول كريم، لا ينطق عن الهوى.

وإن «عمر» ليؤرخ ميلاده بهذا اليوم الذى صافح فيه الرسول وقال: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله»..

فيومئذ، بل ساعتئذ، وجد نفسه، والتقى بمصيره العظيم..

وهو حين آمن بالله وبرسوله، وبدينه، لم يؤمن إيمان العوام، ولا إيمان المنتفعين، ولا إيمان الهُواة.. بل آمن إيمان العارفين الأبرار.

وحين سمع لأول مرة آية الله يتلوها رسوله.. تلك الآية التى تقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٥]. سمعها، وكأنما يسمعها وحده، وكأنما أنزلت إليه وحده.. وأدرك يومئذ كما أدرك قبلئذ أن حياته القصيرة مهما تطل سنواتها لن تغنى عنه شيئًا، وأنه بحاجة إلى ألف حياة مثلها لكى يستطيع أن يصنع صنيعًا يرضيه.. ولكى يستطيع أن يعبد ربه ويشكره.

من أجل هذا، كان شديد الخوف على اللحظة العابرة أن تضيع وعلى الكلمة العابرة أن تنحرف.. وعلى الخلجة العابرة، أن تزِلّ..

كان شديد الخوف على حياته السامقة أن تغيرها خطيئة، أو تَعيبها شبهة؛ لأنها لو كانت ملكا له لوجب عليه أن يرْبأ بها عن كل سوء، فكيف وهى فى تقديره ليست حياتَه، وليست ملكه إنما هى وديعة الله عنده.. والله صاحبها ومالِكُها ولسوف يسأله عنها: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [سورة المؤمنون: الآية ١١٥]!!

من أجل هذا، عاش قلقًا مؤرَّقًا.. ولكنه القلق الذكى المبتعث والأرق المفكّر الممتلئ...

لا ينام إلا غِبًّا.. ولا يأكل إلا تقَوُّتًا.. ولا يلبس إلا خشنًا. يقظانُ دائمًا..

يقول: «إذا نمتُ الليل أضعتُ نفسى، وإذا نمت النهار ضيعت الرَّعية»!!

ويسأل كل من يلقاه فى لهفة وجد: قل لى بربك ولا تَكْذِبنى كيف تجد عمر؟.. أتحسب الله عنى راضيًا؟.. أترانى لم أَخُنِ الله ورسوله فيكم »؟؟!!

وإذا غَشِيته من مظنة التقصير غاشية، صاح صيحة مكظومة:

– «يا ليت أم عمر، لم تلد عمر»!!

كل هذه الرجفة.. كل هذا الحياء.. كل هذا الهم الجليل، لأنه لا يدرى:

ماذا يقول لربه غدًا!!!

□□□